الجزاف بعينهِ وهم لا يستحسنون ان يفعلوا ذلك في تقدير ثمن رطل طماطم يشترونهُ . فاذا اعتمدوا على قاعدة غشوش كان حكمهم اقرب الى العدل

ولا يبعد ان تستعمل هذه القاعدة في امور كثيرة مما يعمل فيهِ برأي الجماعة ولا سيما اذا عبَّر كلٌّ منهم عن رأيهِ برقم حسابي ولكن لا يعمل بها الاَّ حيث يراد تقدير القيمة او تقدير زمن العقاب او نحو ذلك من المقادير العددية ولكن اذا اريد الحكم على القبول او الرفض او اختيار هذا الشخص او ذاك فلا بدَّ من الاعتماد على اكثرية الاصوات

مصر والسودان

الرسالة الخامسة . بلاد النوبة

رجعت من السودان آسفاً لانني لم اتمكن من الصعود الى اعالي النيل ومشاهدة بلاد الجزيرة وسكانها والوصول الى البحيرات الاستوائيَّة التي تغذّي نهر مصر وتجعلهُ اعجوبة الدهر في انتظام فيضانهِ وعذوبة مائهِ . فودَّعت اخواناً اصفياء غمروني بفضلهم مدة اقامتي بينهم وصاحبة اغفلت من المسمعيَّة بدماء الالوف لتكون منارة في قلب افريقية ودخلنا محطة الحلفاية الساعة العاشرة ليلاً فزدت بها اعجاباً ورددت لو ان مهندسها زاد في ارتفاعها لتزيد رونقاً . ثم سرى بنا القطار على جسر الدجى يخترق البلدان التي مررنا بها نهاراً حتى اذا تبلج وجه الصباح سرنا في الاماكن التي مررنا بها ليلاً في صعودنا فلم يفتنا شيء من كل بلاد النوبة من الخرطوم الى اسوان مما تخترقهُ سكة الحديد ولكن البلاد التي كانت عامرة مجاورة للنيل فلا يراها عابر السبيل كلها الاَّ اذا جعل النيل طريقهُ . وهذا الزمان الذي نقام فيهِ الاهوسة[1] على كل الشلالات كما اتيت في اسوان فيتيسر السفر في السفن على مدار السنة وحينئذٍ يصير الصعود الى اعالي السودان من افكه الاسفار ونقل البضائع بهِ من ارخص اساليب التجارة

قلت في رسالتي الاولى ان ملوك النوبة كانوا يغزون القطر المصري المرَّة بعد الاخرى وقد تسلطوا عليهِ غير مرة . وفي القرن العاشر قبل المسيح اقتبسوا العمران المصري وتديَّنوا بالديانة المصرية وعبدوا معبودات مصر وامتدوا في فتوحهم الى القطر المصري حتى اذا كان

(١) الاهوسة جمع هويس وهو تعريف حوض العربية ويراد بهِ باب كبير نسدُّ به الترعة لترفع المياه فوقهُ

القرن الثامن قبل الميلاد استولوا عليه كلهِ وكانت منهم الدولة الخامسة والعشرون من الدول المصرية . وكانت بلادهم كثيرة السكان وافرة الخيرات ولاسيما مملكة مروي التي لا تزال اهرامها قائمة تناطح السحاب وآثار ملوكها منقوشة في الصخور تناوي اتياب الدهر . وقد حاربوا البطالسة وكانت الحرب سجالاً ثم تنصروا في القرن الخامس والسادس وغزاهم العرب لما فتحوا مصر وظلوا يدافعون العرب تارة و يهاجمونهم اخرى الى اواخر القرن الثالث عشر للميلاد فانحط شأنهم بعد ذلك وراجت النخاسة في بلادهم وتدرّجوا في الانحطاط حتى امسوا ولا ملك ولا رئيس ولا شأن يذكر . ووجدت ان اعتقد لم فصلاً طويلاً بعد الانتهاء من مفاخر البطالسة فرأيت الآن ان افي بذلك في هذه الرسالة

يطلق اسم النوبة على كل البلاد بين اسوان والخرطوم وكان المصريون الاقدمون يعدونها من القطر المصري ويسمونها بلاد السود ويقسمونها الى ثلاثة عشر قسماً لكنها كانت في الغالب مستقلة عن مصر ولو حاول المصريون الاستيلاء عليها مرةً بعد اخرى طمعاً بما فيها من مناجم الذهب

واكثر البلاد صحاري وقفار لكنها كثيرة المعادن وما قارب النيل منها كثير الخصب وكذلك البلاد التي تروى من نهر الاتبرة وغيره من الغدران المجاورة له

وطول البلاد من الشمال الى الجنوب نحو الف ميل وعرضها من الشرق الى الغرب نحو ثمانمئة ميل وكان المصريون الاقدمون يطلقون على اهلها اسم كش او كوش وهم اقرب الى الزنوج في شكلهم ولونهم منهم الى المصريين . والمظنون ان سكان مصر الاقدمين كانوا منهم ثم جاءها اقوام من الساميين إما من الشمال الشرقي بطريق السويس واما من الجنوب الشرقي من بلاد العرب فدخلوا قارّة افريقية من عند بوغاز باب المندب وساروا على شاطئ البحر الاحمر الى وادي الحمامات عند القصير ثم صعدوا في البلاد غرباً الى ان دخلوا القطر المصري وتغلبوا على سكانه وامتزجوا بهم فتنوّع شكل سكان مصر بما دخلهم من الدم الاسيوي من بلاد العرب او من بين النهرين اذ المظنون ان اصل اولئك الغزاة من جهات بابل فاختلف سكان القطر المصري عن سكان بلاد النوبة

ولم ينقطع الاتصال بين سكان مصر وسكان بلاد النوبة فقد قيل في كتابة وجدت في قبر قديم باسيوط من عهد الدولة السادسة ان الملك اساوهو السابع من ملوك الدولة الخامسة ارسل رجلاً من قوّاده الى بلاد الانزام ليأتيهُ بقرم منها لتسليته فذهب وقطع بلاد النوبة ووصل الى بلاد تقط وعاد منها بالقرم المطلوب . بل يظهر من العظام التي وُجدت في مدافن

الدولة الاولى ان ملوكها كانوا يأتون بالاقزام من بلاد السودان . وجاء في سيرة اونا وزير الملك بيي من ملوك الدولة السادسة ان سيده ارسله الى بلاد النوبة ليجمع الجنود من اهاليها ومن الزنوج ويحارب بهم سكان جزيرة سيناء . وجاء في تاريخ الملك منتوحتب الثالث من ملوك الدولة الحادية عشرة انهُ حارب بعض القبائل القاطنة في بلاد النوبة وذلك نحو سنة ٢٥٣٠ قبل المسيح . وجرى الملك اوسرتسن الاول مجراهُ في محاربة قبائل النوبة والتنكيل بهم وهو الثاني من ملوك الدولة الثانية عشرة

وبلغ من اهتمام ملوك مصر الاقدمين ببلاد النوبة ان الملك اوسرتسن الثالث حفر في شلال اسوان ترعة طولها ٢٥٠ قدماً وعرضها ٣٤ قدماً وعمقها ٢٦ قدماً وسار فيها الى بلاد النوبة لكي يحارب اهاليها ويخضعهم لسلطته . وجاء في كتابة اخرى ان الملك تحتمس الاول سار في هذه الترعة وهو صاعد لعقاب النوبة . وان الملك تحتمس الثالث طهَّرها بعد ان رُدمت وامر ان يطهرها اصحاب المراكب كل سنة . وعند الشلال الثاني فوق وادي حلفا كتابات من عهد الملك سبك حتب الاول من الدولة الثالثة عشرة تدل على الحد الذي اوقع اليهِ ماء النيل في السنوات الاربع الاولى من ملكه

والظاهر ان اهتمام ملوك مصر بجنوبيها وبلاد السودان صرفهم عن حفظ ثغورهم الشرقية الشمالية من جهة آسيا فنقلوا عاصمتهم الى طيبة (حيث خرائب لقصر وكرنك) وتوالى قدوم الغزاة الى مصر واخيراً دخلها الرعاة (الهكسوس) وامتلكوها . ولا ذكر لبلاد النوبة مدة ملكهم فبقي امرها مستقلاً الى زمن اماسس من الدولة الثامنة عشرة فانهُ لما فرغ من طرد الهكسوس واخضاع القبائل النازلة في الشمال الشرقي من مصر صعد في النيل حتى بلغ البلاد التي بين وادي حلفا وشلال سمنة واوقع بالنوب وذبح منهم مذبحة كبيرة ثم عاد وقد دانت لهُ البلاد شمالاً وجنوباً وردَّ ملك الفراعنة الى ما كان عليهِ ولكنهُ لم يكد يغادر بلاد النوبة حتى قام رجل من اهلها يلقب في الكتابات المصرية بالنحس فشق عصا الطاعة وخرب المياكل فعاد الملك اماسس الى بلاد النوبة وتغلب عليهِ واسرهُ . واقتفى ابنهُ امنحتب خطواتهِ فغزا بلاد النوبة وضمها الى املاكهِ واقام عليها والياً لقب امير كوش كانت اقامتهُ في مصر غالباً وجرى تحتمس الاول مجراهُ فغزاها ايضاً وقتل ملكها واتى بجثتهِ الى طيبة . ولما توفي عصى النوب ونهبوا امتعة حكامهم المصريين وحاولوا النزول الى مصر فجهز عليهم تحتمس الثاني واثخن فيهم واسر ابن ملكهم

وتوالت الغزوات في عهد تحتمس الثالث وابنهِ امنحتب الثاني وحفيدهِ امنحتب الثالث

فأوصل حدود مصر الى الشلال الرابع فان بلاد النوبة خضعت في السنة الرابعة من ملكه وكان مركز العصيان في مكان يبعد ثلاثين ميلاً عن وادي حلفا جنوباً فذهب اليه وادّب العصاة واسر منهم ٧٥٠ اسيراً ونقش اخبار حروبه على حجر عند شلال سمنة وبنى هناك هيكلاً عظيماً باربعة ايراج وهو اكبر هيكل مصري بني في بلاد النوبة فان طوله كان اكثر من ٣٠٠ قدم وصوّر على ابراجه وهو يقطع رؤوس خصومه . ولا تزال خرائب هذا الهيكل الى الآن محفوظة اكثر من غيرها من خرائب المباني المصرية في بلاد النوبة لبعدها عن قرى الاهالي ولو كانت قريبة منها لنقضوها واخذوا حجارتها . وفي الهيكل اعمدة كبيرة مما قطره سبع اقدام ولا بدّ من ان انهتب ازاد ارهاب اهالي النوبة ببناء هذا الهيكل الضخم في بلادهم

وابتدأت الدولة التاسعة عشرة قبل المسيح بنحو ١٤٠٠ سنة ومنها الملك ستي الاول والملك رعمسيس الثاني وهما من اعظم ملوك مصر فبنيا الهياكل في بلاد النوبة كما بناها في غيرها اي ان الكهنة كانوا يبنون الهياكل باسمهما . وقوي شأن هؤلاء الكهنة في سروي وابنع العمران فيها خصبها وبعدها عن الحدود التي تكثر فيها الحروب والقلاقل وشاعت فيها الديانة المصرية بكل رسومها وجعل الكهنة ينقشون الكتابات بالقلم المصري سواء كانت بلغة مصر او بلغة النوبة فعلا شأن تلك البلاد رويداً رويداً وصار ملوكها او ولاتها يظاهرون ملوك مصر او الخارجين عليهم من رعاياهم ويتحزبون لفريق على فريق من مدعي سرير الملك الى ان كانت الدولة الثانية والعشرون وملوكها من ليبية او من العراق فجاروا على بيت هرهرو الذين كان منهم رؤساء الكهنة وعمّال القراعنة في النوبة فهاجروا الى مدينة نبتة او نباتا في اعالي بلاد النوبة وصاهروا ملوكها وصار منهم رؤساء كهنتها وارتقت البلاد في عهدهم وبنيت فيها المباني الفخيمة والهياكل الكبيرة وجعلوا يقيمون الاهرام لدفن موتاهم اقتداء بملوك مصر وكان مقرّ ملكهم بين الاتبرة شمالاً والخرطوم جنوباً والنيل غرباً وجبال الحبشة شرقاً وتلك البلاد وافرة الخيرات كثيرة المعادن من الذهب والنحاس والحديد وفيها حراج واسعة ومراعٍ نضرة ومروج خصيبة ونهر الاتبرة كثير السمك وموقعها الجغرافي من احسن المواقع للتجارة مع البلدان الكبيرة العاج والجلود وريش النعام فلم تكد تقوى وتستعز حتى امتدت سلطتها جنوباً الى اسوان بل الى طيبة حتى اذا قام منها ملك اسمهُ بيانخي غزا مصر سنة ٧٥٠ قبل المسيح ثم عاد الى عاصمته في جبل برقل او الجبل المقدس ونقش اخبار حروبه على مفيحة كبيرة من الحجر في هيكل بناهُ في ذلك الجبل . ويظهر منها انهُ دوّخ بلاد مصر كلها فاستولى على طيبة والبهنسا وغيرها من مدن الصعيد الكبيرة ووصل الى منف فاقفلت ابوابها في وجهه فخاطب

اهلها وقال لهم انهُ آتٍ ليعبد معبودهم فتاح وانهُ لا يقصد لهم شرًّا فلم يفتحوا ابواب مدينتهم لهُ ثم جاء امير صا الحجر وحرَّضهم على المقاومة وذهب يستنجد بامراء البلاد المجاورة فلما رأى الملك بيانخي ذلك هجم على المدينة من جهة النيل ودخلها عنوة وقتل واسر كثيرين من اهلها وقدَّم القرابين للاله فتاح وطهَّر المدينة بالبخور والعطور وسمَّت لهُ المدن المجاورة وجاءهُ ولاتها خاضعين واحتفل في اليوم الثاني الى مدينة هليوبولس (المطريَّة) وجاءهُ الملك اوسركون الثالث وهو هناك وقدَّم لهُ الطاعة واقتدى بهِ غيرهُ من امراء البلاد ورؤسائها وحلفوا لهُ يمين الطاعة وقدموا لهُ الهدايا الثمينة . ويقال في ختام الكتابة ان الملك بيانخي جمع ملكي الوجه البحري وملكي الوجه القبلي وكل امراء الوجه البحري قبل رجوعهِ الى بلادهِ . ولا يذكر ماذا جرى في هذا الاجتماع . ثم عاد الى بلادهِ ومراكبهُ مشحونة من خيرات بلاد الشام وبلاد قفط ومن الذهب والفضة والنحاس والثياب

والظاهر من هذه الكتابة ان الوجه القبلي كان قد صار من اعمال مملكة النوبة قبل غزوة بيانخي هذه وان مملكة النوبة لم تكن اقل من مملكة مصر عظمة وارتقاء في الفنون الحربيَّة وان الملك بيانخي كان من القواد العظام الذين لا يغزون البلدان قصد النهب والسلب بل قصد تعزيز سلطتهم فيها فانهُ عفا عن كل الذين سلموا لهُ واكتفى من الملوك والامراء بان اقسموا يمين الطاعة فأقرَّهم في مناصبهم واكتفى من مسابس ملك منف بالتسليم ولم يصرَّ على حضورهِ اليهِ لكي لا يحقرهُ في عيون شعبهِ

ولم يعد الملك بيانخي الى مصر فقامت فيها الدولة الرابعة والعشرون ولا يذكر منها الاَّ ملك واحد ثم الدولة الخامسة والعشرون ابتدأت بشباكا النوبي اين كشتا ملك طيبة وهي دولة نوبيَّة محضة وكان الملك شباكا معاصرًا لسرجون وسنحاريب ملكي اشور وقد وجد في المكتبة الملكية بنينوى صفيحتان محفورتان بخاتمهِ وفيهما اسمهُ والقابهُ . والظاهر انهما كانتا متصلتين بهدايا اهداها الى سرجون ملك نينوى

وذكر هيرودوتس الملك شباكا ومماهُ سباكوس وقال انهُ ملك مصر خمسين سنة ولم يعاقب احدًا بالقتل بل برفع التراب في جوار المدن حتى علت عن الاراضي المجاورة لها وفي جملة ذلك مدينة بوبستس (تل بسطة) . ثم وصف هيكلها وقال ان الملك شباكا حلم حلمًا أُمر فيهِ بقتل الكهنة فخاف وهرب من القطر المصري لكي لا يفعل فعلاً يلام عليهِ . وذكرهُ المؤرخ ديودورس ايضًا وقال انهُ كان مغاليًا في عبادة الالهة والحنان على الرعية وكان يبدل عقاب القتل بجعل المحكوم عليهم يرفعون الجسور ويحفرون الترع فينفع البلاد . ثم ذكر مسألة

الحكم الذي أُمر فيه بقتل الكهنة وقال انهُ استدعاهم اليهِ وقال لهم انهُ أُمر بما يغيظ الله وخير لهُ ان يموت او يهجر البلاد من ان يفعل فعلاً يغيظ الهة . ثم ترك مملكتهُ وعاد الى بلاد النوبة وخلفهُ ابنهُ شبتاكا وهو الذي انجد حزقيا ملك يهوذا على سنحاريب ملك اشور فكان الفوز لسنحاريب . واستنجد ملك مصر بترهاقا ملك بلاد النوبة فجاءهُ وخلعهُ وخلفهُ على سرير الملك سنة ٦٩٢ قبل المسيح وهو الاخير من الدولة الخامسة والعشرين وانشأ هيكلاً في جبل برقل حفرهُ في الصخر وجعل طولهُ ١٢٠ قدماً واقام امامهُ برجين عرضهما ٦٣ قدماً واقام في صحنهِ ١٦ عموداً ارتفاع كلٍّ منها ٨٠ قدماً ووضع في محرابهِ مذبحاً من حجر الغرانيت . ولهُ منشآت كثيرة في طيبة في كرنك ومدينة هبو وفي مدينة صان واستراحت البلاد في ايامهِ لان سنحاريب ملك اشور كان مشغولاً عنها بمحاربة مملكتي عيلام وبابل فلما تغلب عليهما انقلب راجعاً الى سورية وارسل احد قوادهِ لمحاصرة اورشليم وسار هو قاصداً مصر لكنهُ اضطرَّ ان يعود عنها لاسباب ذُكرت في التوراة وفي تاريخ يوسيفوس وتاريخ هيرودوتس على روايات مختلفة . ثم اتى في المرة الثالثة وتغلب على اورشليم واخذ الجزية من حزقيا وعاد الى بلادهِ فقام عليهِ ابناهُ وقتلاهُ وكان ذلك سنة ٦٨١ قبل المسيح وخلفهُ اسرحدون فقصد مصر وفتحها عنوة ودخل منف ونهبها وولى فيها الولاة وهرب ترهاقا من وجههِ

ثم قصد اسرحدون مصر سنة ٦٦٨ لكنهُ مات في الطريق فعاد ترهاقا الى منف . وبلغ اشوربني بال خلف اسرحدون ان ترهاقا عاد الى منف وازدرى سطوة اشور وطرد الولاة الذين اقامهم اسرحدون فيها فاخذ منهُ الغيظ كل مأخذ وقام قاصداً مصر فهرب ترهاقا من وجههِ ورد اشوربني بال الولاة الى مناصبهم وعاد الى بلادهِ بالغنائم ولم يكد يبعد عن مصر حتى تآمر بعض هؤلاء الولاة وتواطأوا مع ترهاقا لكن أُولي الامر من الاشوريين دروا بهم وبغشوا فاخبروا اشوربني بال فبعث بجنود اخمدوا الثورة وعاقبوا الثائرين

ومن الغريب انهُ وجدت كتابات مصرية يقال فيها ان ترهاقا كان يمتلك بلاد الحيثيين والاشوريين والليبيين وذلك دليل قاطع على انهُ لا يمكن الاعتماد دائماً بالكتابات المصرية ما لم تؤيدها ادلة اخرى إما لان الكهنة والنقاشين كانوا ينقشون على التماثيل والحجارة نقوشاً لا يفهمون معناها او لأنهم كانوا يتملقون الملوك بالاكاذيب

وخلف ترهاقا ملك نوبي اسمهُ ثنوت آمن ويسمَّى في الكتابات الاشورية تندماني وقد وجد في جبل برقل صفيحة مكتوبة من عهدهِ يقال فيها انهُ سافر الى بحر الروم (الاخضر الكبير) وملك مصر ومضى الى هيكل آمن في نبتة وقرَّب فيهِ ٣٦ ثوراً واربعين كيلة من

البيرة ومئة ريشة من ريش النعام ثم عاد الى الفتيين الجزيرة اسوان وطيبة ومنها الى منف وتغلب على مقاوميه

ويقال في الاخبار الاشورية انهُ بينما كان تنوت آمن يحاصر منف بلغ خبرهُ اشوربنيبال فاسرع الى مصر ولحق حرب تنوت آمن من وجوهِ الى طيبة وتبعتهُ جنود اسور اليها فتركها وذهب الى كبكبة فنهب الاشوريون طيبة وغنموا منها غنائم وافرة واسروا كثيرين من الرجال والنساء والاولاد وعادوا الى نينوى وكان ذلك نحو سنة ٦٦١ قبل المسيح فخربت طيبة من ذلك الحين وكان سبب خرابها اعتداء هذا الملك التوابي على رجال ملك اشور

ثم قامت الدولة السادسة والعشرون واول ملك منها استمتك وهو اول من جند الجنود من اليونان وحمى بهم ثغور مصر وقد ظن البعض انهُ تركي الاصل وظنَّ غيرهم انهُ ليبي . ومن اعظم آثارهِ السلَّة الكبيرة التي نقلها الامبراطور اغسطس الى رومية . وساد السلام والامن في ايامهِ وكانت مدة ملكهِ ٥٤ سنة . وخلفهُ ابنهُ نخو الثاني وحاول فتح ترعة السويس التي كانت مفتوحة في عيد رعمسيس الثاني فلم يفلح مع انهُ استعمل ١٢٠ الف عامل وهو الذي ارسل بحَّارة من الفينيقيين ليدوروا حول افريقية لانهُ كان يعتقد ان البحر يحيط بها من كل ناحية فنزلوا في البحر الاحمر وداروا حتى وصلوا الى بحر الروم . ثم غزا سورية وامتلكها لكن حاربهُ نبوخذنصَّر في كركيش وقهرهُ فاضطر ان يعود الى مصر مخذولاً ومات فيها بعد سنتين وخلفهُ ابنهُ استمتك الثاني فملك ست سنوات فقط وخلفهُ ابريس او حفرع وفي عهدهِ هرب ارميا النبي الى مصر . وخلفهُ اماسس الثاني وارسل كمبيس ملك فارس سفارةً الى مصر وخطب الى اماسس الثاني ابنتهُ فارسل اليهِ ابنة ابريس مدعيًا انها ابنتهُ على ما قالهُ هيرودوتس فاغتاظ كمبيس من ذلك وغزا مصر وفتح منف عنوة ويقال انهُ وصل الى عاصمة بلاد النوبة وبنى فيها مدينة مروي وسماها كذلك باسم اختهِ او زوجتهِ وقوي شأن الفرس في مصر فلم يعد ملوك النوبة يجسرون على اجتنابها

واعظم مدن النوبة التي بنى فيها ملوكها المباني العظيمة دنقلا ونبتة ومروي (البقراوية) وقفا وبان النقا والمصورات والصفراء . وقد وجد فيها علماء الآثار كتابات كثيرة استدلوا منها على اسماء ملوكها ومنهم ملك اسمهُ اسبلتا نشأ في النصف الثاني من القرن السابع قبل المسيح فكان معاصرًا للدولة السادسة والعشرين من الدول المصرية وقد وجد خبر لتربجيو على بلاطة في جبل برقل ويقال فيهِ ان ستة من اشراف المملكة تجبوهُ واتى بهِ الى هيكل الجبل المقدَّس واوقف امام تمثال آمن حتى اذا وافق على التخابيو صار ملكاً على البلاد

ووجد في ذلك الجبل صفيحة تسمّى صفيحة الخرم وقد محي منها اسم هذا الملك وصورة رأسه كما ترى في الشكل المقابل . وممّا كتب فيها ان الملك ذهب الى هيكل آمن في نبتة في الجبل المقدّس وطرد منهُ الرجال الذين يكرههم لانه رع لانهم لا يعجبون اللحم بل يأكلونهُ نيئاً وكان الملك قد طلب منهم ان يقلعوا عن هذه العادة فتآمروا عليهِ وحاولوا الايقاع بهِ فاكتشف مؤامرتهم ومضى الى الهيكل وقتلهم وامر ان لا يدخل احد من نسلهم ذلك الهيكل . والظاهر ان نسلهم ارادوا الانتقام منهُ فمحوا اسمهُ ورسمهُ من هذه الصفيحة

ومن ملوك النوبة الذين وجدت آثارهم الملك هروسانف الذي رقي الى عرش الملك سنة ٥٦٠ قبل المسيح والملك نستسن ويقال في آثاره ان في ايامهِ دخل كمبسن بلاد النوبة فحاربهُ نستسن وتغلب عليهِ واخذ سفنهُ وقتل رجالهُ وغنم اموالهُ . والمظنون ان كمبسن هذا هو كمبيسس ملك الفرس

وقد بقي من اخبار ملوك النوبة في عهد اليونان والرومان والعرب شيء كثير تلذ مطالعتهُ ارجأت تلخيصهُ الى فرصة اخرى . ولا يكاد المرء يصدق ان تلك الجبال القاحلة والسهول التي لا ينبت فيها الآن الأشجار السنط وقليل من النخل الشائك كانت كثيرة السكان عامرة المدن تحارب القطر المصري وقد استولت عليهِ سنين كثيرة . والبلاد حيث كانت والنيل والاتبرة يجريان الآن كما كانا يجريان في العصور الغابرة ولا ينقصها الا العقول والهمم لتستعيد سالف مجدها ولقد كانت تشقى وتسعد في تلك الازمان ولكنها لم تصل في شقائها الى ما وصلت اليهِ الآن ولا سيما في زمن المهدوية . وقد حلّ بها قبلاً ما حلّ بمصر واشور وبابل وفينيقية ثم زيدت ضغثاً على ابالة في عهد التعايشي فهل يقوى العهد الجديد والحكومة الجديدة على اسعادها ثانية وهل تسعد باهلها او بغيرهم مسألتان تصعب الاجابة عنهما الآن

الرسالة السادسة . آثار مصر في بلاد النوبة

اعني بذلك الآثار القديمة الباقية من عهد الفراعنة . ولم ارَ منها الا هيكل ابي سنبل وهيكل وادي السبوع . اما هيكل ابي سنبل فاعظم المباكل التي انشأها رعمسيس الثاني وهو محفور في الصخر على الضفة الغربية من النيل وعلى ١٧٠ ميلاً من اسوان وقد بناهُ لنفسهِ كما بنى لحوريهِ مع الخنيين وجعلهُ لعبادة آمن اله طيبة ورع حوروختي اله المطرية وفتاح اله منف ثم عُبد هو فيهِ . وظن البعض ان هذا الهيكل صنع قبل زمانهِ وهو انهُ نقشهُ وسواهُ

صفحة الحريان

صورة ملك من ملوك النوبة وزوجته على جدار جبل البركل

وجهة هيكل ابي سمبل الكبير

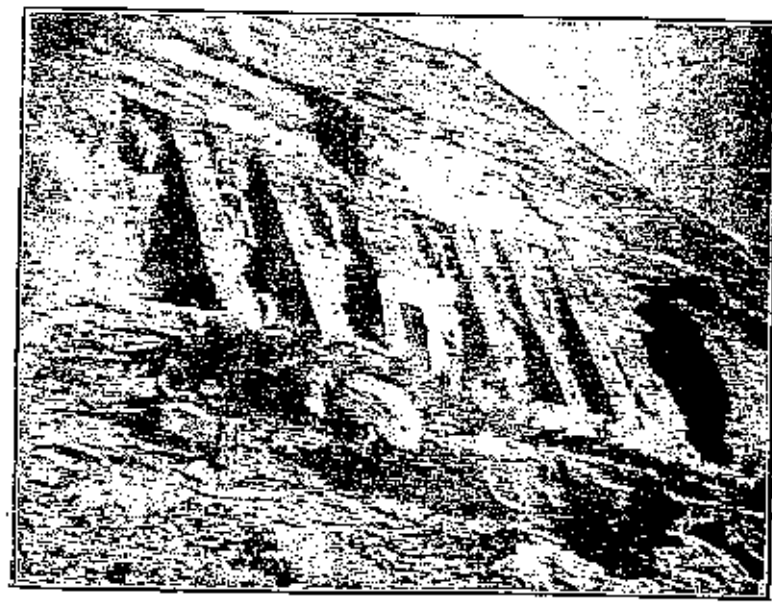

وجهة هيكل ابي سمبل الصغير

صحّ ذلك او لم يصح فلا شبهة في انهُ من اعظم مباني المصريين بعد الهرم الاكبر

طول واجهتهِ نحو مئة قدم وعلوها اكثر من تسعين قدماً وقد نُحت الصخر من اعلاهُ الى اسفلهِ حتى صارت منهُ هذه الواجهة . وفي اعلاها افريز فيهِ ثمانيل ٢١ قرداً من القرود التي رؤوسها تشبهُ رؤوس الكلاب وتحتها نقوش وكتابات هيروغليفية يقال فيها " اني اعطيك الحياة والقوة " وفوق الباب تمثال الاله هرماخس وعلى يمينهِ ويسارهِ تمثال رعمسيس الثاني يقدم لهُ النقادم وعلى جانبي الباب اربعة تماثيل كبيرة تمثل رعمسيس الثاني جالساً على عرشهِ وارتفاع كل تمثال منها ٦٥ قدماً واسم رعمسيس على اكتافها وصدورها . وعلى ساق واحد منها كتابة يونانية يقال انها من عهد بسمتك الاول كتبها جنودهُ المترزقة من اليونان وهم صاعدون الى بلاد النوبة . وداخل الهيكل دار كبيرة فيها ثمانية اعمدة ارتفاع كل منها ١٧ قدماً ويوصل منها الى دار ثانية اصغر منها فيها اربعة اعمدة ومنها الى دار مستطيلة لا اعمدة فيها ويتفرّع من الدار الاولى ثماني غرف عن جانبيها ومن الثالثة ثلاث غرف كما ترى في الرسم وفي الغرفة الوسطى من هذه الغرف الثلاث مذبح واربع تماثيل جالسة لهرماخس ورعمسيس الثاني وامن رع وكتاح . وجدران الهيكل مغطاة بالنقوش من اخبار الملك رعمسيس وهناك صفيحة فيها وصف مسهب للواقعة الشهيرة التي تغلب فيها على ملك الحثيين وهاك ترجمتهُ

" في التاسع من الشهر الثالث من فصل شمت (شهر ابيب) في مدة ملك جلالة الثور المجبّار محبوب مآت ملك الجنوب والشمال شمس الشمس ورمسو محبوب آمن معطي الحياة الى الابد . لقد كان في بلاد طخاه في غزوتهِ الثانية واقام الحرّاس في معسكرهِ الى الجنوب من مدينة قادش[1] . نهض مثل الاله رع وارتدى بحلتهِ المجيدة مثل ابيهِ منتو وظلّ السيد يسير امامهُ حتى وصل الى مدينة شبطون وحينئذٍ جاء اثنان من الشاسو وقالا لهُ " ان اخوتنا الذين هم رؤساء القبائل المحالفة للحثيين الملاعين ارسلونا الى جلالتك لنخبرك اننا نريد ان نكون من خدامك ولسنا بمحالفين للحثيين الملاعين . وقد نزل الحثيون في بلاد خريو (حلب) شمالي طرنب لانهم خافوا منك " . هذ ما قالهُ هذان الرجلان لكنهما كانا كاذبين لان الحثيين الملاعين بعثوا بهما ليجسسا المكان الذي نزل فيهِ جلالتهُ قبلما يوقف جنودهُ في مواقف القتال . واجتمع الحثيون الملاعين هم ورؤساء الامم المجاورة وجنودهم وفرسانهم الذين جمعوهم وعددهم كبير جداً وكانوا بهم وراء مدينة قادش الحقيرة ولم يكن جلالتهُ يعلم ذلك

(١) قادش عاصمة الحثيين في سورية كانت مبنية على بحيرة حمص حيث يخرج منها نهر العاصي (انظر وصفها في المقتطف مجلد ١٣ صفحة ٣٦٦)

فسار جلالتهُ الى الشمال الغربي من مدينة قادش حيث نصب جنودهُ خيامهم وجلس على عرشهِ الذهبي واذا بكشَّافه من كشافتهِ جاءوه بجاسوسين من جواسيس الحثيين الملاعين فلما اوقفوهما في حضرتهِ سألهما قائلاً من انتما فاجابا نحن من اتباع رئيس الحثيين الملاعين الذي بعث باعوانهِ ليأتوا ويعرفوه اين انت نازل . فقال لهما جلالتهُ اين رئيس الحثيين الملاعين فقد سمعت انهُ في بلاد حلب فقالا ان رئيس الحثيين الملاعين ومعهُ جيش لا يحصى من بلاد الحثيين وبلاد النهرين وفينيقية (قطنا) جنود وفرسان عددهم كالرمل على شاطئ البحر وقوف الآن وراء مدينة قادش القديمة على اهبة الهجوم . حينئذٍ استدعى جلالتهُ قوَّاد جيشهِ لكي يطلعهم على ما اخبرهُ بهِ الجاسوسان وقال لهم ليخبروهُ كيف قال رؤساء الجند والرقباء والكشافة ان رئيس الحثيين الملاعين هرب الى بلاد حلب حالما سمع بقدومهِ لانهُ يجب عليهم ان يحققوا الاخبار قبلما يخبرونهُ بها . ثم قال انظروا فاني قد علمت من هذين الجاسوسين ان رئيس الحثيين وصل بخيلهِ ورجلهِ وعدد جنودهِ كالرمل الذي على شاطئ البحر وهو الآن وراء مدينة قادش القديمة ومع ذلك لم يعلم بهذا رؤساء الجند ولا رؤساء الكشافة

ولما قال ذلك اعترف القوَّاد الذين كانوا في حضرتهِ ان الموكلين بذلك اخطأوا خطأً فظيعاً لانهم لم يخبروا جلالتهُ عن مكان رئيس الحثيين اللعين ولما رأوا ذلك امرهم جلالتهُ ان يستدعوا الجنود الذين كانوا الى جنوبي مدينة شبتون ويأتوا بهم الى حيث كان هو باسرع ما يمكن . وبينما كان جلالتهُ في مجلس شورائهِ هذا قدم رئيس الحثيين اللعين بشاتهِ وفرسانهِ وحلفائهِ الذين تألبوا حولهُ من كل الامم وعبروا القرية التي الى جنوبي قادش وسدُّوا خطواتهم الى وسط جنود جلالتهِ وهم لا يدرون فخاف جنودهُ وركضوا الى حيث كان هو واقفاً وزحم جنود الحثيين الملاعين الحرس الخاص بجلالتهِ فلما رآهم سخط عليهم كابيهِ منشور طيبة وتنطق فوق عدة حربهِ واخذ رمحهُ ووقف كالاله بار وصعد الى مركبتهِ واقتحم الاعداء وهجم على قلبهم مثل الاله سوتخ الجبَّار وحصدهم حصداً والحق فيهم وطرح اشلاءهم في نهر عرنوث (العاصي) وقال " انا لرجائي وثقتي فرساني تركوني ولم يحسر احد منهم ان يتقدم لمعركتي فاخلص الاله رع بحبتي وابي آمون بشكر قلبي . هذا الذي فعلتهُ على مشهد من جنودي وفرساني وصنتهُ بالحق ولم ابالغ "

ويؤخذ من القصيدة البليغة التي نظمها شاعر امية بتاورت ونقشت في كثير من الهياكل المصرية ان جنود الحثيين فحطما الجبال والاودية كالجراد واضطروا كل سكان

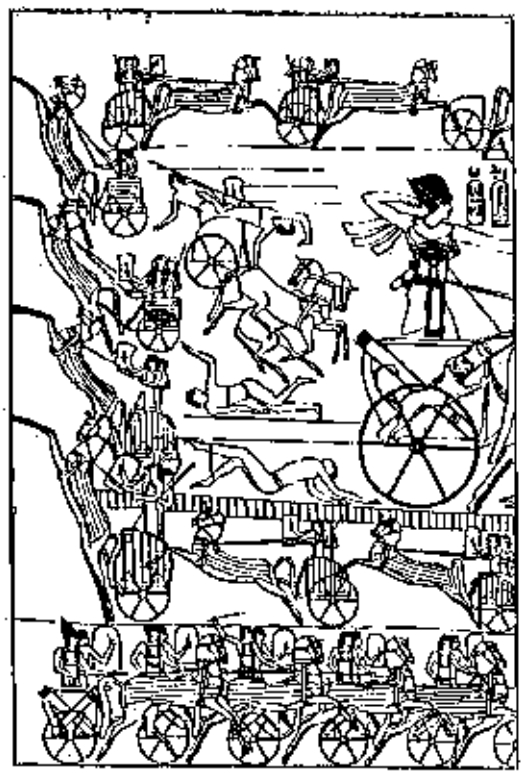

من صور المعركة مع الحثيين وفيها صورة رعمسيس الثاني في مركبته والاسد الاليف او هو رسم اسد في المركبة

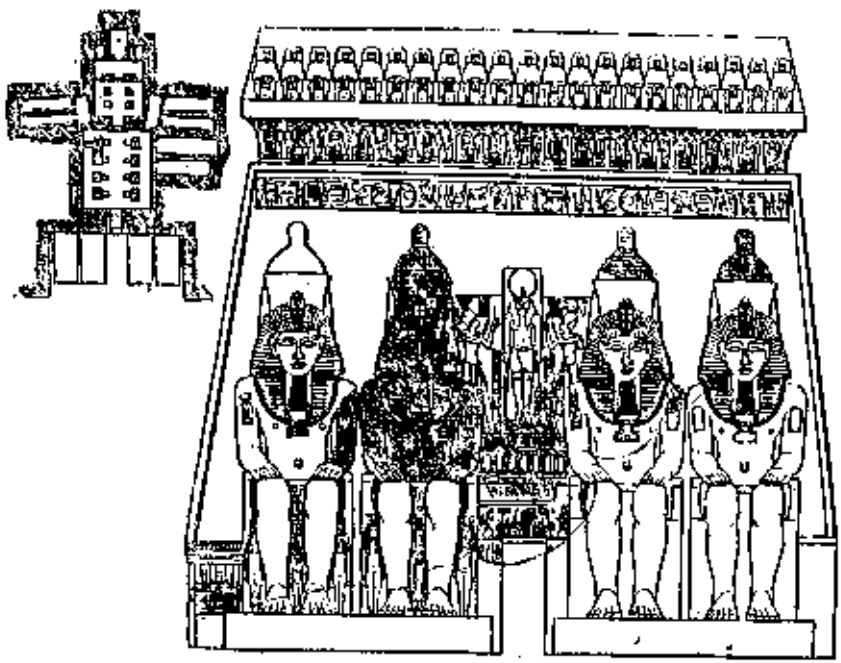

واجهة هيكل ابي سمبل الكبير والافريز الذي فوقها ورسم الهيكل من داخله

البلاد ان يحارب امامهم وكان الجيش المصري مقسوماً الى اربعة فيالق فيلق آمن وكان سائقاً مع الملك وفيلق رع وكان في المنخفض غربي مدينة شيتون وفيلق فتاح وكان في الوسط وفيلق سوتخ وكان ماسكاً الطرق فهجم الحثيون اولاً على فيلق رع وكانوا بحبة الجند ومعهم مركبات كثيرة في كل مركبة منها ثلاثة جنود فهجم الملك عليهم واوقع بين مركباتهم ثم التفت فاذا هو وحده وحوله الفان وخمس مئة مركبة من مركبات الاعداء وقد سدّوا عليه طريق الرجوع فنادى الاله آمن قائلاً " لماذا لا تأتي لمعونتي الم اقم لك هياكل ملأتها بالاسرى واعطيتك من كل ما املك وجعلت البلاد كلها تدفع الجزية لك عشرة آلاف ثور عدا الخشب الطيب من كل نوع . ولم امنع يدي عن عمل كل ما تريده بنيت لك ابراجاً ومباني أخرى واقمت لك اعمدة نُقلت الى الابد ونصب لك المسلات من ابو (جزيرة اسوان) وارسلت السفن لتأتي بخيرات البلدان القاصية . هانذا في وسط الجوع الذين تألبوا عليّ وانا وحيد وليس معي احد وقد تركني جنودي كلهم ورجال مركباتي ناديتهم فلم يصغوا اليّ ولكن انت خير لي من ملايين من الجنود ومئات الوف من الخيل وعشرات الوف من الاخوة والابناء . جيوش البشر كلا شيء وآمن خيرٌ منهم كلهم "

فمدّ الاله آمن يدهُ الى الملك وقال انا معك انا ابوك رع قوتي معك وانا افضل من مئات الالوف . ثم هجم الملك على اعدائه فهربت الخمسة الآلاف من خيول الاعداء امام جواديه ولم يستطع احد ان يقف امامهُ بل سقطوا كلهم ولم يعودوا يستطيعون القيام

ولما رأى ملك الحثيين والملوك الذين معهُ ما حلّ بهم اركنوا الى الفرار ولكن سائق مركبة الملك رعمسيس خاف من ابتعاد مولاهُ عن جيشهِ لاسيما وان العدو احدق بهِ من كل ناحية فتوسّل اليهِ ان يقف فتحك الملك وقال ان لا بدَّ من قتل كل اعدائهِ وامرهُ ان يتشجع ويهجم على الاعداء هجمة سادسة ثم وثب رجالهُ وركّاب المركبات على جنبهم وقال لهم ان صدماتهم لا تفني وقت الشدّة وعدّد لهم النعم التي منحها لمصر ثم شدّد عليهم النكير لجبانتهم . ولم يصبهُ مكروه في هذه المعركة ولما انقضت التفت الى فرسيهِ اللذين كانا يجران مركبتهُ وقد انقضاضهُ لما احاط بهِ الاعداء وامر انهُ بعد عودتهِ الى قصرهِ يقدّم لهما العلف امامهُ دائماً ولم ينسَ سائق مركبتهِ لانهُ هو الرجل الوحيد الذي بقي معهُ من كل رجالهِ فجعلهُ رئيس الفرسان . وكان في مركبتهِ اسد اليف كان يهجم على الاعداء كلما لاحت لهُ فرصة

ولما رأى ملك الحثيين ما حلّ بهِ ارسل الى رعمسيس يطلب منهُ الدفع لئلاَّ تقفر البلاد فاجاب طلبهُ وعزم على الرجوع الى مصر . ولا يذكر ان رعمسيس غنم غنيمة او اخذ

جزية لكنهُ امر ان يكتب خبر ظفره على جدران الهياكل في ابيدوس وطيبة وان يشفع الخبر بالصور الممثلة تلك الواقعة فترى فيها رعمسيس في مركبتهِ والمركبات امامهُ ووراءهُ والارض جثثٌ والمركبات تصعد عليها والجنود مجندلة على الصعيد او غائصة في الماء والخيل شاردة تدوس الجرحى بحوافرها وفي بعضها الجنود المشاة سائرون بتروسهم ومزاريقهم او واقفون في اعالي الابراج وقد انعقدت سحابة النجاج فوق الرؤوس وفي بعضها الاسرى موثقين بايديهم وراء ظهورهم او فوق رؤوسهم والجلادون يقطعون ايادي القتلى والكتاب يعدُّونها ويحصونها في سجلاتهم الى غير ذلك مما يطول شرحهُ ولا يفي وصفهُ عن مشاهدتهِ

لكن المحققين في هذه الايام يرجحون ان الحرب كانت سجالاً بين المصريين والحثيين سكان شمالي افريقية فرضي رعمسيس من الغنيمة بالاياب وعاد ولم يتملك بلاداً ولا اخذ اسيراً وعُقدت شروط الصلح بينهُ وبين ملك الحثيين وفيها الحقوق متبادلة متساوية بين الطرفين وما نزل المعاهدة التي كتباها محفوظة الى الآن وهي تدلُّ دلالة واضحة على ان الحثيين كسبوا بهذه الحرب اكثر مما خسروا وانهُ كان للصالح التجارية المقام الاول حتى في ذلك العهد . لكن الكهنة يتجرون بالتملُّق والعامَّة انعام مسوقة والخاصة تقطع المناصب لسنتهم ولولا اكتشاف الحقائق بالبحث والتحري لكانت تواريخ الملوك والعظماء اشد ما كتبهُ البشر تضليلاً

والى الشمال من هذا الهيكل هيكل الالهة حثور الهة ابر شك (ابو سمبل) وهو محفور في الصخر ايضاً وارتفاع واجهتهِ ٩٢ قدماً وعرضها ٤٠ وفيها ستة تماثيل كبيرة ارتفاع كلٍّ منها ثلاث وثلاثون قدماً اربعة منها لرعمسيس الثاني واثنان لزوجتهِ نفرتاري وطول الهيكل من بابهِ الى محرابهِ ٩٠ قدماً وطول الهيكل الاول ١٨٥ قدماً

وهيكل وادي السبوع على الضفة الغربية ايضاً بناهُ رعمسيس الثاني بعضهُ مبني بالحجر الرملي وبعضهُ منقور في الصخر وقد بناهُ للسجود رع ملك الالهة وفيهِ صورتهُ واقفاً يسجد لرع ورع يقول لهُ اعطيك كل قوة واعطيك العالم بسلام . والظاهر ان النوبيين جعلوا هذا الهيكل كنيسة لما تنصروا ولا شأن لهُ بالنسبة الى غيرهِ من الهياكل المصرية . ولم تقف السفينة بنا لارى غير ذلك من الآثار لكن ما رأيتهُ يكفي للدلالة على قوة السلف وضعف الخلف فانهم يعجزون عن ان يأتوا باقل شيء مما اتى بهِ اسلافهم كأن سمًّا دخل البلاد فسممها وسمَّ سكانها منذ مئات من السنين . وقد نقلت خبر حرب الحثيين عن تاريخ مصر للدكتور بدج عن النسخة المطبوعة سنة ١٩٠٢